مصادر الثقافة الأدبية في ليبيا

د: مولود بشير محمد كشلاف

تقديم

ليبيا بلد مترامي الأطراف يمتد الجزء الأعظم منه في الصحراء وبحار الرمال ولا توجد به أنهار، فسكانه الذين يتكتلون في الشريط الساحلي كانوا يعتمدون –قبل استخراج النفط – على مياه الأمطار والزراعة البعلية، وبعض الزراعات المروية، التي تسقى بطرق البدائية من الآبار الجوفية التي تصل إلى عمق ثلاثين متر في بعض المناطق عن طريق الدلاء والدواب وبعض الينابيع الزهيدة [1]، ولذا كانت الحياة المعيشية صعبة للغاية، وفي كثير من السنوات تمر على البلاد سنوات جفاف يحجب فيها الغيث، مما أجبر بعض السكان للهجرة للبلدان المجاورة كتونس والجزائر ومصر والسودان، حيث الأنهار والأودية الجارية وغزارة الأمطار طلباً للقمة العيش، وهو أحد العوامل الذي جعل عدد سكان هذا القطر يعدّ من النزر القليل مقارنة بعدد سكان الأقطار المجاورة، كما كان أيضاً للثورات الداخلية عامل ثانٍ في نقص عدد سكان، وبخاصة ابان السيطرة العثماني والغزو الإيطالي، ناهيك عن الأمراض والأوبئة الفتاكة هي الأخر عمال آخر في ذلك النقص.

فقد كان صاحب الأسرة لا يستطع وحده أن يقيم على دخل أسرته ومعيشتها اليومية ولذا كان لزاماً على كل أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال القادرين المشاركة في عمل ما حتى يسد رمق الأسرة في معيشتها وحياتها اليومية، إلى جانب تلك المشاق كان "انتقام الجباة الأتراك القساة ، بحيث يستحيل أن يخلق هذا الوضع المعيش المناخ الملائم لازدهار الأفكار والأدب والفنون"[2] ولهذا كانت الأسرة لا تستطيع تعليم أبنائها، فنادراً ما تجد أسرة ميسورة الحال تبعث بأحد أبنائها للتّعلم والدراسة، بغض النظر عن القلة من ابناء الشعب الذين هم من اصحاب رؤوس الأموال، أو المقربين من الطبقة الحاكمة .

والسؤال هنا الذي يحتاج إلى إجابة شافية كافية. كيف ومتى كانت بدائيات الثقافة الأدبية في ليبيا وسط هذه الحياة الاجتماعية؟

مرت البلاد وعموم الوطن العربي فترة زمنية قذفت بها في مكب الجهل والتخلف، فمنذ أن تربع الأتراك العثمانيون على عرش البلاد لم "يولوا للحركة الأدبية والعلمية اهتماماً خاصاً فكان شغلهم الشاغل تثبيت حكمهم وتدبر أو كشف دسائس منافسيهم على السلطة، وملء خزائنهم بالأموال والأرزاق والنفائس"[3]

ففترة حكم الأتراك العثمانيين وبخاصة العصر العثماني الأول (1551م – 1711م) كانت فترة مظلمة في كل الأقطار العربية، حتى عُرفت هذه الفترة بعصر الانحطاط، فقد فرض أولئك الحكام السلاطين اللغة العثمانية لغة رسمية، وجعلوا دراسة اللغة العربية تنحصر في دراسة العلوم الدينية فقط، كما أجهدوا كاهل الناس بالضرائب المثقلة، حيث فرضوها على كل ما يمتلكه المواطن حتى أنهم فرضوا ضريبة على كل فرد باغ من أفرد الأسرة، فكل شيء في لبلاد لم يسلم من جباياتهم القاسية والتعسفية[4] ومع انفراد القره مالين بالسلطة في ليبيا شهدت البلاد في مستهل هذا الحكم استتباب أمني واسع، وتحسن اقتصادي شامل، ورعاية الباشا نفسه للعلماء وطلاب العلم، كل ذلك كان وراء انطلاق بداية حركة فكرية وعلمية، حيث سنحت الفرصة للطلاب للانطلاق إلى مناهل العلم في ربوع البلاد وخارجها مما شجع حركة التأليف والنتاج العلمي بين العلماء، فعلى سبيل المثال لا الحصر خرج في هذه الفترة كتاب التذكار لابن غلبون، الذي ترجم للكثير ممن حكموا طرابلس الغرب، ويعد اللبنة الأولى في المصادر الأدبية لدراسة الحياة الفكرية في العهد القره مالي[5]

المساجد والكتاتيب والزوايا

مع دخول الفاتحين العرب المسلمين الشمال الأفريقي ودان أهله بالإسلام صار حتماً على سكانه تعلم العربية وقواعدها وآدابها، ففي بلادنا ليبيا انتشر بنا المساجد، حيث كان المسجد جامعاً للعبادة من ناحية وللتعلم من ناحية أخرى، وكانت ليبيا في العهود الإسلامية الأولى إحدى إمارات الدول الإسلامية لها هيبتها ومكانتها آنذاك،

مما جعل الاستقرار السياسي يدوم فترات طويلة، وهو السبب الذي جعل المراكز العلمية تقوم بمهمتها على أحسن وجه، فـ "منذ عهد موسى بن نصير[6]، وما تلاه من حكم الأغالبة ثم الفاطميين، أخذت طرابلس تتصدر مدن ليبيا العربية، وتكثر فيها الحلقات العلمية والمدارس وتقام فيها المساجد والأبنية العربية المختلفة، ويفد إليها العلماء المسلمون من المشرق، من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، يعلمون الناس الأدب الكريم وفرائض الإسلام، كما يعلمونهم العربية"[7]

وكان التعليم في بداية الأمر لا يتعدى تعليم الطلاب القراءة والكتابة وحفظ القرآن في المساجد، التي كانت تنشر في ربوع مدن البلاد وقراها وواحاتها، وإلى جانب تعلم النطق الجيد لحروف العربية وحفظ القرآن " كانت الناشئة تتزود فيها ببعض الأحاديث النبوية، وببعض سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشيدين، وكانت تزود فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلم فروض الإسلام وخاصة الصلاة، وكيفية أدائها، وما ينبغي لها من والوضوء والطهارة، كما تتعلم بعض إرشادات تهدي إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم" [8]

وبعد ذلك تطورت الأمور وصارت " الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء، الذين كانوا يرابطون في المساجد، ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات في فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية، وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد في مدنها وقراها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس"[9].

وتعد فترة القرنين الهجريين الثاني والثالث، حيث أصبحت طرابلس وبرقة من المراكز العلمية الخصبة في الشمال الأفريقي. [10]

وقد عُرفت قاعة الدرس في المسجد بالخلوة، وكان الطالب يحضر معه صفيحة من الخشب– اللوح – وهي الوعاء الرئيسي والوحيد للكتابة، إذ يكتب عليها بقلم معد من نبات القصب ومداد اتخذ من محروق صوف الغنم العبس المزوج بشيء من الماء، وعندما يحفظ الطالب ما كتب على لوحه يأمره الشيخ بازلت ما على وجهي

اللوح من كتابة بالماء والجص[11] وتهيئته لكتابة الدرس الموالي، وهذه الطريقة لا زالت تستعمل في مركز تحفيظ القرآن الكريم حتى يومنا هذا .

وكان اليوم الدراسي يبدأ من الصباح الباكر حتى الظهر، حينها يمنح الطلاب فترة راحة لتناول الغداء، ثم يرجعون لحلقة الدرس مع صلاة العصر وتستمر الدراسة حتى صلاة المغرب، وتستمر الدراسة على هذا النظام ماعدا مساء الخميس ويوم الجمعة – يوم العطلة الأسبوعية، ويتقاضى الشيخ عادة من طلابه بعض النقود أو الأشياء العينية كشيء من شعير أو قمح أو بيض أو تمر أو زيت أو نحو ذلك.[12]

وبعد أن يحفظ الطالب القرآن كاملاً ينتقل إلى دراسة متقدمة في إحدى الزوايا، – جمع زاوية – وسُميت بالزاوية؛ لأن طلاب العلم ينزون فيها؛ أي يقيمون فيها لأجل التعلم، هي عبارة عن مبنى وفي كثير من الأحيان يؤسسه شخص ميسور يوقفه على تدريس العلوم الشرعية عادة ما تتكون من مسجد، وعدة غرف لإقامة الطلاب والمدرسين القادمين من أماكن بعيدة، تفتح على أروقة تتوسطها باحة بأحد جوانبها حوض لغسل اللوح، وقد يلحق بها بعض الحوانيت ليصرف دخل إيجارها عليها، كما عادة ما يكون لها ووقف من عقارات وأشجار زيتون ونخيل، وقد انتشر الزوايا في ليبيا بعدد كبير منذ الفتح حتى أن مدينة الزاوية سميت بالزاوية لكثرة زوايا العلم بها ونسبة لزاوية بن سنان، التي تعد من أقدم الزوايا في البلاد، إذ تأسست في القرن السدس الهجري أما الزاوية الأسمرية فقد تأسست في سنة 900هـ وغيرها، ولازال الكثير من هذه الزوايا قائمة على نشاطها حتى يومنا هذا.[13]

ومن أهم الزوايا التي ذاع صيتها وأنتشر شعاع قبسها خارج حدود البلاد الليبية زاوية الجغبوب، التي تأسست سنة 1854م وعرفت بالزاوية السنوسية نسبة لمؤسسها السيد محمد بن علي السنوسي، وقد عنت هذه الزاوية بتعليم ونشر المذهب المالكي في ربوع البلاد وخارجها، وبفضل الله ورودها ومريديها تأسست الكثير من الزوايا مثل زاوية البيضاء في الجبل الأخضر، وزاوية الجوف في واحة الكفرة، التي كان لها الدور الكبير في التحريض على الجهاد وحماية الوطن، ونشر الأمن والأمان، وحماية

حدود البلاد الجنوبية الشرقية للبلاد في تلك الفجاج العظيمة، وقطع دابر قطاع الطرق والغزاة واللصوص والمفسدين القادمين من شمال السودان واتشاد وجنوب مصر، الذين كانوا يغيرون على تجار القوافل وإلحاق الضرر بسكان تلك الواحات، ومن الزوايا التي تأسست خارج البلاد على سبيل لا الحصر زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة وهي تعد أول زاوية تتأسس في الخارج، وزاويتي الواحات البحرية والداخلة بمصر.[14]

وإذا تأكد شيوخ الزاوية من حفظ الطالب للقرآن حفظاً جيداً يحال الطالب بعد ذلك إلى دراسة بعض العلوم الشرعة حسب المنهج المعد ويشرع الطالب في كتابة بعض المتون على لوحه لحفظها وتلقي شرحها من قبل شيوخ الزاوية[15] و هذه المتون عبارة عن قصائد شعرية تتناول قواعد علم من العلوم المختلفة.

وقد خرّجت هذه الزوايا كثيراً من العلماء والفقهاء والفلاسفة والمجاهدين والشعراء والكتاب، ذاع صيتهم واشتهرت مكانتهم، كان لهم الدور الكبير والفعال في إحياء العلوم المختلفة وبخاصة العلوم الشرعية والعربية، وتثقيف الشعوب العربية والإسلامية ومقاومة الغزاة المعتدين. [16].

وكثير من خرجي هذه الزوايا شد الرحال إلى مصر حيث الجامع الأزهر، أو إلى تونس حيث جامع الزيتونة ونالوا أعلى الشهائد منهما، وهناك من سافر إلى تركيا وتحصلوا على شهائد في مختلف العلوم.[17]

ومن الشعراء والأدباء الذين اعدوا من قِبل هذه الزوايا ويستوجب ذكر شيء من نتاجهم الأدبي على سبيل المثال لا الحصر:

- الأديب الفاضل الشيخ محمد بن محمد بن عبد القادر الفطيسي، المولود سنة 1200هـ بزليطن، وقد درس في زاوية الفرجاني بساحل الأحامد، وزاوية النعاس بتاجوراء، وهو صاحب قصيد' جبل ديسان"[18] ، وقد قالها حينما قضى مرض الطاعون على السكان المجاورين لهذا الجبل سنة 1252هـ يقول في مطلعها[19]

أنظر يميناً فذاك الطود ديسان وأنظر شمالاً فهل في الربع سكان

هذي منازل من نهوى وأين هم — لم يبق ممن هويت اليوم إنسان
ديسان أدرى فسِله عن منازلهم — فهم له عند جمع الشمل جيران
كانت به فتيات كالظبا وبه — ومثالهن من الأتراب فتيان
وكان من حوله خِصب نزلن وبه — كأنّه عند من يهواه بستان

وهي قصيدة طويلة وتعد من روائع الشعر الليبي.

- الشاعر الأديب مقرب حدوث المُكنى (أبوسيف) من قبيلة البراعصة بالشرق الليبي تتلمذ في الزاوية السنوسية في مدينة البيضاء وقد اشتغل بالتدريس وكان يعرف بشاعر الحلق السنوسية ت 1314هـ، ومن جيد شعره قوله في توديع شيخيه المهدي السنوسي حين عزم الذهاب إلى الكفرة : [20]

همو هيجوا يوم النوى برح أشجاني — وحاديهم لما ترنم أشجاني
وهم سلبوا لبي وألبس بينهم أحزاني — رداء الرّدى جسمي وأثواب

إلى قوله:

لك الله من ركب تيمم كفرة سودان[21] — تتاخم كاوار المتاخم
غدا طاوياً نشر البسيطة باسطاً العاني[22] — لأعلام عز تنجد الضارع

الرحالة ودول الجور

ليبيا واسطة عقد الشمال الأفريقي، وتطل على أطول ساحل على البحر المتوسط والمار من الشرق إلى الغرب لابد أن تطأ أقدمه أرضها، إذ كانت طريق تختر الساحل الأفريقي تبدأ من الأرضي المغربية مروراً بمدن الساحل الجزائرية والتونسية، وتخترق مدن الساحل الليبي[23] والمصري، ثم تفرع شمالاً إلى الشام حيث بيت المقدس وجنوباً إلى الحجاز، حيث المشاعر المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهناك طريق صحراوي موازي يخترق المدن الصحراوية في تلك البلدان[24]،

وفي ليبيا المدن متناثرة وتباعد عن بعضها المسافة طويلة، وكانت "قوافل الحجاج الذين كانوا يأتون من المغرب الأقصى، والجزائر وتونس، ويمرون بليبيا، يبقون فيها فترة من الوقت، وكان من بينهم العلماء المتخصصون في مختلف المجالات العلمية، والذين يحاولون أن يستفيدوا من فترة إقامتهم في ليبيا في التّعلم والتعليم والتعرف واللقاء مع علماء ليبيا وطلاب العلم فيها، فيفيدوا ويستفيدوا"[25].

ويقال أنّ كثيراً من الرحالة العلماء نزلوا بالمدن الليبية، وطابت لهم "الإقامة شهراً أو أشهر ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البياني، الذي مرّ بطرابلس وبرقة في عامي 332،338هـ فلتفّ به طلابهما يكتبون عنه، ومثل الفقه أبي الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسي، الذي نزل طرابلس في عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته... ويروى عن بعض هولاء العلماء الوافدين –وخاصة على طرابلس– أنهم توقفوا بها للأخذ عن علمائها، ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجري، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس."[26]

ومن الرحالة الذين مروا بليبيا ياقوت الحموي ت 1229م، وبن خلدون ت1382م، واليعقوبي ت905م، والإدريسي ت 560هـ، والتجاني ت1321م ، ويقال أن هذا الأخير أقام بمدينة طرابلس عاماً كاملاً وزار مدرستها التي أسسها بن أبي الدنيا المحدث الطرابلسي وحضر بها بعض الدروس وودعها بقصائد رائعة[27]، وغيرهم ممن مروا بالبلاد الليبية ووصفوا مدنها وأهلها، وقد خلف هولاء العلماء الرّحالة إرثاً في علوم مختلفة تغلب عليها مسحة الأسلوب الأدبي.

المدارس

عرف العالم الإسلامي المدارس النظامية منذ منتصف القرن الخامس الهجري، إذ انتهج المسلمون هذا النظام في بداية الأمر في العراق وإيران، وكانت هذه المدارس أشبه ما تكون بالجامعات الآن، حيث يحاضر فيها بمختلف العلوم ، كما

أعدت فيها مساكن للأساتذة والطلاب، وخصصت رواتب للأساتذة، ومنح دراسية يستعان بها الطلاب.

أما ليبيا فقد استعملت نظام المدارس في وقت مبكر، وبالتحديد في عهد الدولة الحفصية، إذ أشاد بعض الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بديعة شُيدت بين سنتي 555 و558هـ على يد الفقيه الطرابلسي عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. ويقال: أن بعض المدارس بُنيت في غرب ليبيا –من غير الأخيرة– وبخاصة في جبل نافوسة حيث ينتشر المذهب الأباضي[28]، أما في العهد العثماني الأوّل، فقد أهمل التعليم والحركة العلمية عموماً؛ لأنّ حكامهم لم يكونوا أهل علم وثقافة بل هم " طبقة لا صلة لها بالعلم أصلاً، فهم فئة من المغامرين والبحارة الممتازين، أدركوا بمهاراتهم البحرية والعسكرية مكانة عالية من مراكز السلطة"[29] وقد استمرت الثقافة في سباتها مقصرة على بعض العلوم الدينية في مدارس معدودة كمدرسة مراد أغا ومدرسة احمد باشا، وبعض الزوايا التي لا يستطع الطالب ميسور الحال مواصلتها نتيجة للفقر الذي لزم عموم أسر الشعب الليبي طيلة وجود هولاء العثمانيين المتسلطين، ولم تعرف عندهم المدارس النظامية إلاّ في نهاية وجودهم مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث توالي إنشاء المداس النظامية في مختلف المناطق، وبخاصة في الغرب الليبي، وقد عُرف التدريس في هذه المدارس بالدراسة الابتدائية، تليها الدراسة بالمدرسة الرُّشدية، ثم تليها الدراسة الإعدادية، وهي تعد بمثابة المرحة الثانوية الحالية، كما أنشئت بعض المدارس المهنية المتخصصة كالمدارس الزراعية، ومدرسة الفنون والصنائع، وودار للمعلمين[30] .

وقد خرجت هذه المدارس العديد من المثقفين والمهرة في مختلف المجالات، نذكر منهم على سبيل المثال الشاعر البارع أحمد رفيق المهدوي[31] الذي نال الشهادة الابتدائية من مدرسة الزاوية الابتدائية، والزعيم بشير السعداوي[32] الذي تخرج في

المدرسة الرُّشدية بالخمس، وداود أفندي[33] ومحمد الفقيه حسن[34] الذين تخرجوا في المدرسة الرُّشدية بطرابلس، بل ومنهم من واصل دراسته في خارج البلاد.[35]

هناك من لجأ لدول الجور مثل: تونس حيث جامع الزيتونة ومصر حيث الجامع الأزهر، بعد نهاية مرحلته التعليمية الأولى في الكتاتيب أمثال: الشاعر الأديب أحمد البهلول[36] الذي درس بالأزهر، وترك ديواناً زاهراً بالمدائح النبوية تحت اسم (ديوان البهلول) الذي يعد أول ديون شعر ليبي يطبع. فقد طُبعت طبعته الأولى في اسطنبول والهند، ولم يُعرف لها تاريخ، ثم طُبع الطبعته الثانية في مطبعة الخشاب 1893م بمصر, ثم توالى طبعه عدة مرات وكانت الأخيرة على يد علي مصطفى المصراتي سنة 1999م، وقد خصه بتشطير قصائد الشاعر عبد الكريم بن ضرغام الطرائفي ومن جيده قوله:[37]

سألتك عُج نحو العقيق مع الحمى[38]

وسلم على المبعوث إن كنت مغرما

نبي كريم لا يزال معظما

أما نحوه جاء البعير مسلّما

وشاهد نوراً مشرقاً بضياء

ومن الذين درسوا أيضاً خارج البلاد أنذاك وتركوا أثراً أدبياً الشاعر المجاهد سليمان الباروني[39]، الذي درس بالأزهر والجزائر وترك ديواناً طبع طبعه الأولى سنة 1908م ومن جميل شعره فيه قوله عن مدينة طرابلس:[40]

لها بشطوط البحر كل غضنفر

له بسلاح العصر عِلم تحكما

بها من صناديد الحروب جحافل

تسيل إذا ما قِيل شدّوا المحازما

صِيام قِيام لا فضيلة

سوى خوضهم لله في لُجج الدماء

الصحافة

هي منبر من منابر المعرفة، ومورد من موارد الثقافة، وهى مظهر من المظاهر الحضارية، يستطيع من خلالها المثقف نشر ثقافته وجهات نظره وابدعاته، سواً كانت نثرية أو شعرية لمتابعيه من القراء، وقد عرف الليبيون الصحافة في زمن متقارب مع ببعض دول العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر باستثناء مصر– طبعاً– ففي ولاية طرابلس صدرت أول صحيفة ليبية عام 1866م تحت مسمى " طرابلس غرب" وهي صحيفة إخبارية رسمية باللغتين العربية والتركية[41]، ثم تلتها بعض الدوريات كصحيفة الترقي، ومجلة "الفنون" ولكنهما توقفتا سريعاً قبل نهاية القرن ويقال بصدور الدستور العثماني سنة 1908م تحررت العقول في البلاد العربية عموماً ونشطت أقلامهم، ففي ليبيا سطع وميض الصحافة في هالة واسعة بظهور عدة صحف، ذات موضوعات متنوعة، فعادت " الترقي" من جديد، وأُصْدِر تسع صحف محلية أخرى، منها السياسية، ومنها الاجتماعية، والأدبية، مثل: "العصر الجديد"، "الكشاف"، "أبوقشة"، " تعميم حُرَّيَتْ"، "المرصاد"، وغيرها[42] .

وبولادة الصحافة كانت المقالة العضو الحيوي والرئيسي في هذا الكائن، فقد برز عدد من الأدباء الليبيين كانت لهم الرِّيادة وقصب السبق في مجال المقالة منهم على سبيل المثال لا الحصر: مصطفى بن زكري[43] ومحمد البوصيري[44] وداود اسعد افندي[45] وغيرهم.

وقد اهتمت الصحافة في هذا العهد بعدة جوانب حيث تنوعت فيها المقالة وتعددت فمثلاً تُعنى المقالة السياسية بقضايا الاستعمار والصراع على المستعمرات، وبروز أمريكا شريكاً جديداً للدول الأوربية، وتنتقد بعض الدول المتحالفة وكان لا تخلو صحيفة من مدح السلطان وتمجيد سياسته وحاشيته، كما اهتمت بدور الدستور في المجتمع كونه محور الحياة الفكرية والثقافية وكانت صفحاتها مجلجلة بشرحه وتفسير

ما كان غامضاً في نصه ومواده[46] وهتم كتاب هذا النوع أيضاً بتثقيف الديني والسياسي للشعب كمثل قول مصطفى بن زكري في صحيفة (الترقي):

"فمنهم من يريد عرض الحياة الدنيا، وقد خان الله ورسوله وباع دينه وقيمه بثمن بخس دراهم معدودة، ومنهم من ابتلاه الله بحب الرياسة، وقيض له شياطين تسعى خلف آماله وتسير في مهام ضلاله ولا تهمه مصالح الأمة، ولا يؤلمه ما تشكوه من تقسيم أجزائها وإلقاء العداوة بين أبنائها، فكيف تطمئن قلوبنا ونصغي إلى قوم يخدعون الله والدين والذين أمنوا، أم كيف نفترق وقد جمعتنا في الله كلمة واحدة " (47)

وعن ألقاب العلماء يقول محمد البوصيري في إحدى مقالاته: "فترى المولود منهم في المهد ويعطى له منشور بأنه (اعلم العلماء المحققين)فبعد الفطام يترقى إلى(أفضل الفضلاء المدققين وإذا صار مراهقاً أُعطيت له (المولوية) وينعت في منشوره(أقضى قضاة المسلمين، ووارث علوم الأنبياء والمرسلين) فإذا صدر وصف (بأعلم العلماء المتبحرين، وأفضل الفضلاء المتورعين، وينبوع الحق واليقين)"[48]

وعلى صعيد آخر وبالتحديد في المجال الاقتصادي حاول بعض الكتاب كتابة بعض المقالات، التي تتحدث عن الرفع بالاقتصاد، وتشجيع أصحاب الحرف والتجار على سلك المناهج العلمية والصحية في حرفهم؛ لزيادة إنتاجهم ويكون عليه إقبال من المشترين[49] مثلما ورد في مقالة عن صناعة:

"كان من الألزم أن تجعل النعال أيضاً موافقة لبعض القواعد الصحية، كسائر الملبوسات؛ لكن لا نزال نرى الأساكفة والمشترين لم يهتموا بذلك مكتفين بمجرد الظرافة الخارجية" [50]

ولم تدم طويلاً هذه الصحف، فقد غزى الإيطاليون البلاد وبغزوهم توقفت هذه الصحف عن الصدور واستبدل الغزاة بدلها صحف إيطالية تهدف إلى نشر ثقافتهم و وتخدم أغراضهم الاستعمارية، فخلت الساحة الليبية من نشر أفكار كتابها ومبدعيها، فكانت فترة خمود وجمود للصحافة الليبية، وقد استمر هذا الحال ما يقارب عن عشر

سنوات إي بعد "اتفاق الرجمة" في الشرق الليبي حينها عادت الصحافة الليبية لنشاطها، ولكن تحت الرقابة المشددة مع ذلك كان الوطنيون والمجاهدون بالكلمة يغلفون نتاجهم بالتورية والمجازات، حتى لا يعرضون أنفسهم للهلاك على يد المستعمر،[51] كقول أحمد قنابة متوارياً ببلاغته في قصيدة يفتخر فيها بالعروبة والإسلام وبطولات وشجاعة الفرسان المجاهدين ضد الغزاة الإيطاليين في أسلوب مسترسل، واختيار موفق للألفاظ [52]:

كفى يا دهر من جهر البلاء

ومن حب التسيطر والعِداء
كفى لترتقب يوماً عبوساً
لدى ملك البسيطة والسماء
أعندك ثعلب أودى هِزبراً
وأتبعه اللدادة بالعراء[53]
فقد عكّرت صفو العيش جهلاً
بما قوضت من أُسّ العلاء
أترجو بالدهاء قياد أمري
وإني فيك منتبه وراء

وعلى الأسلوب نفسه يسير على الشاعر علي الذيب متوجعا من هموم المستعمر بقوله: [54]

دنياي هجير يوقده
حظّي والليل أسوده
وأنا في قاع جهنمها
أعمى يتحطم مقوده
ويلتمس في مطواه خطا

هـ فلم يدرك من ينجده
مغبون صفق حساده
وعليل رحَّم عُواده
لم يُبق عليه الدهر سوى
أمل بالحسرة ينشده
يسعى قدم لواشي علناً
في قتل فتى يتعمده
قد كان شبيهاً موقفه
بأبي لهب تبت يده

والجدير بالذكر إن كثيراً من الوطنيين قد انفجرت قريحاتهم وإبداعاتهم الأدبية بسبب غيرتهم على وطنهم ومواطنيهم سواء من المتعلمين الذين لم يستطيعوا البوح، خوفاً على أنفسهم وأهليهم من بط الغازي المعتدي مثل: قصيدة الشاعر أحمد الشارف الذي يقول في مطلعها:

رضينا بحتف النفوس رضينا
ولم نرض أن يعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش إلاّ عزيزاً
ولا نتقي الشر بل يتقينا
فما الحرّ إلاّ الذي مات حراً
ولم يرض بالعيش إلاّ أمينا

وغير المتعلمين من انفجرت قريحتهم بالزجل الشعبي المحرض على قتال الغزاة

الإيطاليين والإشادة ببطولات المجاهدين، فكان حماسهم زخماً هائلاً نشرت الصحافة بعضاً منه على صفحاتها كما جاء في قصيدة وصف معركة " يوم القطار[55]" التي استبسل فيها المجاهدون الليبيون في مواجهة الغزاة الإيطاليين منه نُقل معظمه تواتراً بين الناس لما فيه [56].من حكم وأمثال وعضات يقول احد الشعراء المجاهدين متحمساً عن ذلك اليوم:[57]

نهار صار في القطار وجحافاته من الصبح لحمنا في شوافاته[58]
نهـــار يـــوم في القطـــار منين المسمس يغتلي سرســار[59]
ما ترى بينا كان بقيص النار واراضـــي كلها بينا فثفاثــه[60]
هم سيص وحنا عرجونا ذكـار واللي استشهد مننا ماقدو حورياته
نهار صار في القطار وجحافاته من الصبح لحمنا في شوافاته

ومع بداية النصف الأخير للقرن العشرين دخلت البلاد عهداً جديداً ذاتياً حيث استقلت البلاد وصارت دولة ذات سيادة، وهي دولة ملكية النظام يدرها دستور اتفق عليه أبنا الشعب الليبي، وصارت للصحافة مكانة واهتماماً كبيرين من جانب الدولة، فقد استحدثت عدة دوريات ما بين صحف ومجلات، إلى جانب بعض الدوريات السابقة لهذا العهد، فعلى سبيل المثال لا الحصر مثل صحيفة الشعلة 1951م وهي السياسية، وصحيفة الليبي 1951م بطرابلس اسبوعية الجامعة، وصحيفة فزان 1957م، وصحيفة العمل 1958م بنغازي سياسية جامعة

الجمعيات والمراكز الثقافية

ما أن خرجت العساكر الإيطالية تجر أذيل الهزيمة منتصف عقد اربعينيات القرن العشرين، حتى تنفس الليبيون الصعداء، ورجع المهاجرون لأرض الوطن حاملين بعض التجارب من الدول، التي كانوا فيها، فأسهموا مع إخوانهم المثقفين بالداخل بناء ورفع للواء الثقافة، وسعوا معاً في تأسيس جمعيات ونوادي أدبية وثقافية؛ لإعادة نشاطهم الثقافي والأدبي لمعانقة اسباب النهضة العربية الحديثة مثل : المؤتمر الوطني الذي أنشئي كمنظمة شعبية سياسية تنادي بوحدة البلاد واستقلالها،

وكان لهذا المؤتمر الذي ترأسه الشيخ بشير السعداوي دوراً كبيراً في احياء وإثراء الحركة الأدبية والثقافية في غرب البلاد، وتأسست في شرق البلاد بمدينة بنغازي جمعية عمر المختار، وتفرعت منها فروع في عدة مدن ليبية، وقد أخذت تلك المراكز على عاتقها نصيباً وافياً في بناء وتأسيس قواعد ثابتة، ودعائم قوية لنهضة ثقافية أدبية وإسلامية، فأسست المدارس والنوادي والصحف، وأقامت المحاضرات والندوات، وعقدت حلقات النقاش والجلسات الشعرية، كما كان التواصل بين الشعراء والأدباء الليبيين وشعراء أدباء الأقطار العربية بخاصة القطر المصري، سواء بالرسائل البريدية أو بذهاب الشخصي له دور كبير في اذكاء شعلة الثقافة العربية والإسلامية داخل القطر الليبي، فنتمى كثير من الشعراء الليبيين إلى التجديد فيما يعرف بمدرسة التقليدية[61]حيث اهتموا بالقضايا الاجتماعية والسياسية رفعوا شعار التحرر والاستقلال[62]، وحاكي بعض الشعراء شعراء الشعر الحر في الشرق العربي، كما كان للحركة الكشفية التي تأسست في منتصف عقد الخمسينيات دور كبير في بث روح الثقافة الأدبية والاجتماعية في نفوس الناشئة وبعد انتعاش البلاد بأموال النفط انطلقت الحياة الفكرية والثقافية بأوسع خطواتها في مختلف المدن الليبية، فأنشئت المؤسسات التعلمية والمهنية المختلفة في كل ربوع البلاد، كما اسست المراكز الثقافية، وتكونت في البلاد مكتبات ثابتة ومتحركة لبيع الكتب، ودارت الآلات الطباعة في المدن الكبرى في البلاد، وصدح المذياع في كل بيت، والنوادي والمنتديات، وبذلك انتشرت الثقافة في المجتمع الليبيى وصارت الأمية تندثر وتتلاشى في المجتمع الليبي، فاستحدث اتحاد الأدباء والكتاب الليبيين وانتشر النتاج الشعر والنثر بين فئات الشعب وصارت الثقافة الأدبية لها مشاركات عمميقة محلية وإقليمية ودولية.

الخاتمة

- عانت ليبيا من هول التدخل الأجنبي مما تسبب في اعاقة الحياة الثقافية.

- يحتاج الجانب الثقافي الأدبي في بلادنا إلى لملمة ذلك الزخم من الموروث الأدبي، فالكثير منه طي الكتمان، ولم يعرف عنه شيء.
- على جميع من لديه نتاج أدبي محتفظ به يجب أن يخرجه للباحثين في الجامعات لدراسته وتحقيه .
- الثقافة الأدبية الليبية لازالت مجهولة لدى الأقطار العربية الأخرى فيجب على الباحثين والإعلاميين التعريف بها.
- نتجة للحقب المظلمة التي مرت بها ليبيا تعد بدايات الحركة الأدبية الحديثة قريبة وقد حددها بعض المهتمين مع بداية الغزو الإيطالي.

(1) ينظر المجتمع العربي الليبي، تيسير بن موسى ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ليبيا ، لاط، 1988م، 92 وما بعدها.

(2) المصدر السابق، 286.

(3) المصدر السابق، 286.

(4) ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تيسير بن موسى، 201.

(5) ينظر: الحياة الفكرية في ليبيا، عمار جحيدر ، مركز جهاد الليبيين طرابلس،2003م، 18.

(6)[6] ولد سنة 19هـ شارك في كثير من الغزوات في عهد معاوية وفي ولاية عبد الملك بن مروان تولى ولاية أفريقيا، وأمر طارق بن زياد فتح الأندلس ت 97هـ، 715م. ينظر: الإعلام، الزركلي، ج7، 330.

(7) قصة الأدب في ليبيا، محمد خفاجي، 35 وما بعدها.

(8)عصر الدول والإمارات ليبيا، تونس، صقلية، شوقي ضيف، دار

المعارف القاهرة – مصر، ط1، 1992، 62

(9) السابق، ص، ن.

10) ينظر: السابق ص ن.

(11) الجص= وهو نوع من الطين الناعم يميل لونه إلى الخضرة أو الصفرة يدهن به اللوح كي يساعد على الكتابة .

(12)ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تيسير بن موسى، 325 وما بعدها.

(13) للتعرف على هذه الزوايا وأماكنها ينظر : معجم البلدن الليبية، الطاهر الزاوي، مكتبة النور، طرابلس ليبيا، ط1، 1968م، 149وما بعدها.

(14) للتعرف عل هذه الزوايا وتاريخها التي أسستها الحركة السنوسية في الداخل والخارج، شبكة التواصل الاجتماع موقع (الزوايا السنوسية منابر النور والهدى في عهد الظلام.)

(15) مثل متن ألفية مالك في النحو والصرف، ومتن الجوهر المكنون البلاغة، ومتن الكواكب الدرية في الفقه وغيرها.

(16) أمثال: الفقيه إبراهيم بن حسان الطرابلسي ت218هـ، والمحدث بو سعيد بن خلف السرتي، وعبد الرحيم البرقي،ت 286، والعالم الشاعر ابن أبي الدنيا الطرابلسي ت684هـ وغيرهم و للمزيد ينظر: قصة الأدب محمد الخفاجي، أعلام ليبيا، الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت– لبنان، ط2، 2004، وكتاب أعلام من طرابلس علي مصطفى المصراتي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته – ليبيا، ط4، 1986.

(17) من هولاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر: ابن أبي الدنيا، و

علي الخروبي، و احمد البهلول، ومحمد العربي، وخليل عبد الكافي، و السنوسي بادي، ومحمد كامل مصطفى وغيرهم رضوان الله عليهم جميعاً. لمعرفة تراجم هولاء العلماء ينظر: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من أعيان، أحمد النائب، تح: علي مصطفى المصراتي، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، 1963م، و أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط3، 2004م،

(18) ديسان= جبل يقع جنوب عين كعام بنحو 10 كم، معجم البلدان الليبية، الزاوي، 135.

(19) ينظر: أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، 349، 350.

(20) أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي، 401،402.

(21) أوار= شدة حرارة الشمس، اللسان، مادة : أ و ر،

(22) الضَّارِعُ= النَّحِيفُ الضَّاوي الجسم. اللسان مادة: ض ر ع. العاني= العبد. اللسان مادة ع ن ا.

(23) تعرف هذه الطريق محلياً بطريق الحاجية حتى يومنا هذا وقد استبدل عوضاً عنها بطريق معبد يعرف بالطريق الساحلي.

(24) ينظر: الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا، علي مفتاح إبراهيم منصور، مركز جهاد الليبيين، طرابلس – ليبيا، 2005م ، 49 وما بعدها

(25) تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا، عمر التومي الشيباني، 157.

(26)عصر الدول والإمارات ليبيا، تونس، صقلية، شوقي ضيف، 63.

(27) للتعرف على هولاء الرحلة ينظر الرحالة العرب ودورهم في كتابة

تاريخ ليبيا، علي مفتاح إبراهيم منصور، مركز جهاد الليبيين، طرابلس – ليبيا، 2005م ، وأيضاً: من تاريخ الثقافة في ليبيا، مختار بن يونس ، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس– ليبيا، ط1، 2009م.

(28) ينظر :السابق، 64.

(29) حكاية من مدينتي، خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، طرابلس– تونس لات، لاط، 109.

(30)ينظر: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تيسير بن موسى، 330 وما بعدها

(31) ولد ببلدة بفساطو إدى ضواحي جبل نافوسة سنة 1898م وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية سنة 1909م، فرّ مع وأسرته من الوطن بسبب جور الاحتلال الإيطالي باتجاه مصر فدرس بمدرسها وبعد رجوعه للوطن اشتغل بالوظيفة العامة، وكان شاعراً له غيرة الوطنية في قصائده حتى عُرف بشاعر الوطن، توفي –رحمه الله – سنة 1961م. ينظر أعلام ليبيا، الزاوي، 101 وما بعدها.

(32) ولد بمدينة الخمس في سنة 1884م حفظ القرآن في إحدى الزوايا السنوسية، ثم التحق بالمدرسة الرُّشدية في الخمس عمل في مناصب مرموقة بان العهد التركي، جاهد الغزاة الإيطاليين بكل بسالة وشجاعة انتخب عضواً في الحكومة الوطنية المنبثقة عن مؤتمر غريان عام 1920م ، ووقف بالمرصاد للسياسات الاستعمارية الأوربية في بلاده، وهو متكلم بارع وخطيب مفوه، ويعد أحد ابرز الرجال الذين حققوا استقلال ليبيا، توفي –رحمه الله سنة 1956م. ينظر السابق. 132، وما بعدها.

(33) ولد بطرابلس سنة 1865م بدأ تعليمه من البداية في المدرسة

الرُّشدية وكان صاحب موهبة واطلاع غزير حتى أنه تعلم عدة لغات أخرى قرأة وكتابة وعتمد عليه في ترجمة الوثائق ، وكان رجل بحاثة شغوفاً بالعلوم العصرية، تقلب في عدة وظائف هامة في ليبيا وتركيا، وهو من أسس "مجلة الفنون " سنة ا1898م التي اعتمد عليها في نشر مقالاته وأبحاثه العلمية، توفي –رحمه الله سنة 1917م. ينظر السابق. 155، وما بعدها.

(34) ولد بطرابلس سنة 1867م ودرس بالمدرسة الرُّشدية التركية بطرابلس ، اشتغل بالوظيفة العامة ، وكان رجل مشهود له بالمواقف الوطنية والغيرة على بلاده ومواطنيه إبان الاحتلال الإيطالي، توفي – رحمه الله سنة 1942م. ينظر السابق. 381، وما بعدها.

(35) مثل: عمر فخري المحيشي من مواليد بنغازي، الذي درس في الإسكندرية وإيطاليا، ومدير صحيفة البريد ومجلة ليبيا المصورة ، وكان من رجال الوطنيين توفي – رحمه الله – في بنغازي سنة 1942م. ينظر السابق. 288، وما بعدها. وفرحات الزاوي من مواليد الزاوية، الذي درس في فرنسا ونال شهادة في الحقوق من إحدى جامعاتها وعمل قائم مقام في منطقة الشاطئ بجنوب البلاد وعضواً في مؤتمر غريان ممثلاً عن الزاوية، وكان رجلاً وطنياً وحقوقياً صادقً توفي مقتولاً برصاص الغدر سنة 1925م. ينظر السابق. 306، وما بعدها. ومما درس بخارج البلاد أيضاً فوزي النعاس الذي ولد بطرابلس سنة 1898م وبدأ دراسته الأولى بها ثم هاجرت أسرته إلى سورية حيث أكمل دراسته بها، اشتغل بالتدريس في لبنان وسوريا وكان مهتم بالقضية الليبية . توفي سنة 1938م. ينظر السابق. 308،

(36) ولد بطرابلس ليبيا في القرن الحادي عشر الهجري، ودرس في طرابلس ثم رحل إلى الأزهر له مؤلفات في الفقه والأدب الشعر . ينظر ديوان أحمد البهلول ، تقديم علي مصطفى المصراتي، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلام، ط1، 1999م، 9.

(37) السابق، 73.

(38) عج = يقصد صوت الحجيج عند التلبية ، العقيق= واد بالحجاز. ينظر اللسان ، مادة: عجج، ومادة عقق

(39)ولد بجادو سنة 1873م، وهو شاعر وأحد قادة الجهاد ضد الغزو الإيطالي تلقد عدة مناصب، وأسس صحيفة الأسد الإسلامي بالقاهرة توفي –رحمه الله بالهند سنة 1918م. ينظر

(40)ينظر معجم الشعراء الليبيين ، عبد الله مليطان، مداد للطباعة والنشر، ط1، 2000م، ج1، 91.

(41) ينظر: صحافة ليبيا في نصف قرن، علي المصراتي، دار الكشاف، بيروت، ط1، 1960م، 30وما بعدها.

(42) ينظر :السابق، 71 وما بعدها.

(43) ولد بمدينة طرابلس سنة 1853م وبها تعلم ودرس وسافر إلى عديد البلدان وهو شاعر وكاتب ويعد من أبرز أعلام الأدباء والشعراء في ليبيا نشر نتاجه في الصحف الليبية أنذاك ، وله ديوان شعر طُبع عام 1892م في تركيا، وعمل في التجارة والتدريس والإدارة توفي –رحمه الله سنة 1917م. ينظر معجم الشعراء الليبيين ، عبد الله مليطان، مداد للطباعة والنشر، ط1، 2000م، ج1، 67.

(44) ولد في ثلاثينيات القرن التاسع عشر الميلادي بغدامس، وبها تعلم

تعليمه الأول ثم رحل إلى طرابلس وواصال دراسته فيها، وعمل في مجال القضاء، وهو من أعلام الحركة الأدبية والفكرية في ليبيا، وهو من أسس صحيفة الترقي، ولم نعثر عثر على تاريخ وفاته نتجة لتناسيه في معظم المصادر. ينظر المقالة في ليبيا ، أحمد عمران سليم ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1992م،259 وما بعدها.

(45)ولد بطرابلس عام 1283هـ وبها درس يجيد التكلم بعدة لغات عمل في كثير من الوظائف العامة في ليبيا وتركيا، وله خبرة افي ترجمة الوثائق وأسس مجلة الفنون عام 1898م ونشر جل بحوثه ومقالاته فيها توفي– رحمه الله– سنة 1917م. ينظر الأعلام ، الزاوي،155 وما بعدها

(46) ينظر المقالة في ليبيا ، أحمد عمران سليم ، 85 وما بعدها.

(47) السابق ، 131 وما بعدها. نقلا عن صحيفة الترقي، ع 22، 1897م. ينظر معجم الشعراء الليبيين ، عبد الله مليطان، مداد للطباعة والنشر، ط1، 2000م، ج1، 91.

(48) صحيفة الترقي نقلاً عن السابق، 138.

(49) ينظر السابق،189.

(50) السابق، 188، نقلاً عن صحيفة طرابلس الغرب ع 1906،1146م،

(51) ينظر: السابق، 145 وكذلك الصحافة الأدبية في ليبيا، الطيب الشريف، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ط1، 2000م، 92.

(52) صحيفة اللواء الطرابلسي، سبتمبر 1921م. نقلاً عن الصحافة الأدبية ، الطيب الشريف، 212.

(53) اللدادة= من لدد وهو الخصومة . اللسان، مادة ل د د.

(54) مجلة المرأة، سبتمبر1946م نقلاً عن الصحافة الأدبية ، الطيب الشريف، 218.

(55) القطار= مكان جنوب غربي بلدة درج قرب الحدود التونسية الليبية بحوالي 60كم تقريباً أرضه ذات رطوبة . حسب ما في بحث الاستاذ إسماعيل الخرزة في مجلة الشهيد، ع9، 1988م، 37.

(56) التعرف على مثل تلك القصائد من الأدب الشعبي ينظر: كتاب دراسات في الأدب الشعبي، عبد ربه الغناي، مكتبة

(57) مجلة الشهيد، ع السابق ، 43. نقلاً عن شريط مسموع مسجل تحت رقم 17/11 بمركز جهاد الليبيين , طرابلس

(58) جحافاته= بعض مسنتقعات الماء الصغيرة التي توجد بالمكان. شوافاته = يقصد العدو الذي دخل هذا المكان

(59) منين= لفظ عامي بمعنى (لما)، المسمس= يقصد به الرصاص ، يغتلي = يدوي، سرسار= مستمر

(60) فثفاثة= أرض بها رطوبة لاتثار فيها الغبار

(61)التي قادها محمود سامي البارودي وقتفاه شوقي وحافظ والزهاوي .

(62) ينظر الصحافة الأدبية، الطيب الشريف، ج1، 74 بعدها.